

كتاب أسرار الوزارة

الباب الأول: في فضيلة الوزارة.

الباب الثاني: في خطر الوزارة.

الباب الثالث: فيمن يصلح للوزارة.

الباب الرابع: في الأسباب الموجبة للوزارة وهي سبعة.

الباب الخامس: في أوصاف الكمال.

الباب السادس: في الموانع للوزارة.

الباب السابع: في بقاء الدولة.

الباب الثامن: في الأسباب المزيلات للدول.

الباب التاسع: في تدبير العدو.

الباب العاشر: في نصيحة الوزراء.

الباب الحادي عشر: في مواظب الحكماء.

الباب الثاني عشر: فيما يختص بعقوبته.

الباب الثالث عشر: في وظائف الوزارة.

الباب الرابع عشر: في مصانعة العمال.

الباب الأول في فضيلة الوزارة

العرب تقول: الوزارة تلو الملك، بل الوزارة هي الإمارة، والتواضع في الرئاسة إحدى شباك السياسة، فالوزير بمنزلة الملك، فليكن أكرم الناس وأسأخاهم، ويجب أن يكون هاديا مهديا متحريرا محنكا، موصوفا بالدين والأمانة والعفة والديانة، مأمون العيب، نقي الجيب عن الرشوة والمصانة، فالوزير سفير بين الأمراء والرعية، وإذا كذب السفير بطل التدبير، والرئاسة صنو الإمارة. يقال: مثل السلطان كمثل الشمس، والرعية بمنزلة الثلج، ومثل الوزراء بمنزلة الجبال، فلولا الجبال لأتت الشمس على الثلج وأذابته في يوم واحد، لكنهم يدفعون البلبا عن الرعية ويصلحون أمورهم من حيث لا يشعرون. قال النبي ﷺ: «إذا أراد الله تعالى بأمر خيرا جعل له وزيرا صالحا إن نسي ذكره، وإن ذكر أعاته».

والوزارة على نوعين: وزارة ملك عاقل رزين كريم، خائف لله تعالى مطيع، مائل إلى العدل حائد عن الجور. فوزارة هذا الملك غنيمة باردة، والنوع الآخر: وزارة ظالم غشوم، وجبار عنيد، فوزارته فساد الدين والدنيا وندم وخسارة. قال الحكماء: يجب أن يكون الوزير مثل المرأة التي لها وجهان فبوجه ينظر إلى الرعية [وبوجه ينظر إلى السلطان]^(١) والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) ما بين المعكوفتين زيادة على الأصل لتمام السياق.

الباب الثاني في خطر الوزارة

قال النبي ﷺ : «من اقترب من أبواب السلطان افتتن»، مثل وزير السلطان كمثل راكب الفيل تهابه الناس وهو من نفسه أهيب، وقيل: أخوف ما يكون الوزراء إذا استقرت المملكة وهلك العدو، وكانت وزراء الفرس متى رأوا إقرار الملك واستبشار الملك هيجوا الفتنة من الجوانب؛ ليشغل قلب السلطان وتضطرب المملكة فلا يتفرغ لهم الملك، فالوزراء مرحومون والرؤساء وأيم الله معذرون^(١)؛ لأن ألبابهم مشغولة بأشياء تكون الرعية بمغل عنها، إنني أرى صاحب السلطان في تعب، فإن قتل السلطان أحدا قيل بإشارته، وإن أطلقه قيل بمشاورته، وإن عدل قالوا من السلطان، وإن ظلم قالوا من فعل الوزير، ورضا الناس غاية لا تدرك، فيصبح الوزير ونفسه في تعب، ولبه متوزع، وفكره بعيد، وهمه عظيم، ودينه متثلم، والخوف مطيف به، والأمن عازب عنه، والعافية موهومة والسلامة مظنونة، والسهر غالب عليه، والناس في أمورهم وهو في شغل شاغل، لا تنصفهم الرعية، يريدون منهم سيرة أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - ولا يسيرون فيهم سيرة رعية أبي بكر وعمر - رضي الله تعالى عنهما.

(١) وأيم الله، يجوز أن تكون همزتها همزة قطع كالمثبت وأن تكون همزة وصل، ويجوز (وإم الله)، و(من الله)، و(وأم الله).

الباب الثالث

فيمن يصلح للوزارة

اعلم أنه لا يصلح للوزارة ولا يستأهل للرياسة إلا امرؤ راض نفسه وهذبه، ومارس الأمور وجربها، وخلط العماء واقتبس منهم، وعرف غوائل الأمور وغور الأشياء، وأنصف من نفسه وانتصف ولم يعتسف، وعلم أنه إنما استوزر لأجل الرعاية خاصة وما أريدت الرعاية له، كالراعي احتيج إليه لأجل الشياه، وليست الشياه مطلوبة لأجل الراعي، والطبيب مطلوب لأجل المريض، والمريض ليس بمطلوب لأجل الطبيب، فالوزير استوزر بثوابه جنة الفردوس يحفظ الإسلام والمسلمين كالراعي استوزر يحفظ الأغنام، فهذا الرئيس استوزر لأجل الأنام، فالراعي إذا حفظ الشياه استحق الأجرة، وإن ضيعها يؤخذ بالغرامة ويحبس في سجن الملامة، كذلك الوزير والرئيس إذا حفظا المسلمين استحقا الأجرة ونالا السعادة، وإن ضيعا خسرا الدنيا والآخرة.

يقال له: يا راعي السوء أكلت السمين، وتركت الضعيف الهزيل، لأنتقم منك.

فمن أوصاف الوزير أن يكون علما بالله تبارك وتعالى وبصفاته حتى يعرف الحق من الباطل، ومنها أن يهذب أخلاقه حتى يهذب الرعاية، فمن لا يقدر على مصلحة نفسه كيف يصلح غيره؟! مثله: السراج إذا لم يكن مضيئا في نفسه لا يضيء البيت. ومنها أن يقرأ سير الملوك والأمراء المتقدمة، ويطالع الكتب المصنفة فيها. ومنها أن يشاور في كل أمر حدث له ولا يستحي من المشاورة، فقد أمر الله تبارك وتعالى سيد الأنبياء وفخر العالمين بالمشاورة مع وجود الوحي ورؤية جبريل عليه السلام. ومنها أن يعظم الوزير أن الشريعة معيار المملكة وميزان السلطنة فيزن نفسه ورعيته بميزان الشريعة، فمن قتله الشرع

فهو شهيد^(١) وخير الدنيا والآخرة في الشريعة، وسلامة الدنيا والآخرة في الاعتدال والاعتزال وفي العدل والإنصاف، وبالعدل قامت السماوات والأرض.

ومنها أن يكون الوزير عالي الهمة عظيم العطاء. ومعنى علو الهمة أن كل أمر يفعله ويتولاه فينتهيه نهايته، وإن عفا عفا عن عظيم. وإن بطش بطش عن قوة. وإن حمى أحدا فيبذل النفس على هواه. وإن أعطى يعطي عظيما. ومنها أن يكون سنيا حسن المذهب لأن المبتدع مذموم بكل لسان مبغوض عند كل إنسان. ومنها أن يكون سخيا مفضالا. ومنها أن يكون شجاعا مقداما على الأمور.

ومنها أن يكون حسيبا نسيبا ليعظم في القلوب وقعه. ومنها أن يكون عفيفا متورعا، فإن المفسد آفة الدين والدنيا، ويجب أن يكون حليما مراعيًا للخدم والحشم، ويكون له صاحب أخبار، ويكون له خبيئة صالحة مع الله سبحانه وتعالى ويحفظ مجلسه عن السخف والسخرية، ويقوي أمور الشرع، ويحضر مجالس العلماء ويتقرب إليهم، ويأمر أولاده بالأدب ودراسة العلم، ويجب عليه في قضية العقل وكمال الحال أن يجعل للعلم والمناظرة مجلسا مخصوصا، فيخص كل إمام بما يستحقه، ويميز في العطاء، وتكون محبته لمن أحسن إليه أكثر من محبته له؛ لأن لذته بها لذة فاعلية ولذة الآخذ لذة انفعالية.

ومنها أن يحضر العلماء والقراء لختم القرآن في داره، ويدرسون سنة النبي ﷺ ويناضون بين يديه، ويجزل العطاء للعلماء لإشاعة ذكره، ويجب عليه أن يحدث آثارا يذكر بها إلى يوم القيامة مثل المدارس والرباطات للصوفية، ويكون كلامه فصيحاً بهياً جهورياً، ودائماً يوفر على الخيرات، ويجب عليه أن ينزل الناس مراتبهم، فيكرم أهل الكرامة، فإن النبي ﷺ بسط رداءه للكافر، وقال: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه»، وقيل: من لم يحترم الإخوان تذهب مروءته وحرمة،

(١) أي: وإن ظن أنه ينال منه بتطبيق الشرع فهو شهيد، وقد كان سيدنا عمر رضي الله عنه شهيداً، وقد كان أولى الناس بتطبيق شرع النبي ﷺ والاقتضاء بسيرة صاحبه سيدنا أبي بكر رضي الله عنه.

ومن لم يحترم الوزير والرئيس تذهب حرمة دنياه، ومن لم يحترم الطعام تذهب حرمة آخرته، وروي عن علقمة - رضي الله عنها - أنه جاءها سائل فأعطته كِسْرَةً، وجاءها رجل حسن الهيئة، فلمرت له بِخَوَانٍ^(١) ووسادة، فقيل لها في ذلك، فقالت: إن رسول الله ﷺ أمرنا أن ننزل الناس منازلهم. والله أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

الباب الرابع

في الأسباب الموجبة للوزارة

الأول: السخاء، والثاني: النجدة، والثالث: الحلم، والرابع: الصبر، والخامس: التواضع، والسادس: الشجاعة، والسابع: العفاف. وقد قالت الحكماء: كل وزير ورئيس اجتمع فيه سبع خصال فوزارته بالاستحقاق، ومن تعرى عن هذه الأوصاف فولايته بالاتفاق، فدولة العاقل من الواجبات، ودولة الجاهل من الممكنات، وتلك الأوصاف: حفظ الدين والمذهب عن التبديل. والثاني: حفظ البيضة وحدود الإسلام. والثالث: حفظ عمارة البلدان. والرابع: مقامات المظالم. والخامس: تقرير الأموال لحسن الجبالية. والسادس: إقامة الحدود. والسابع: اختبار العمال، فمن فعل ذلك فقد استأهل لها حق الله سبحانه وتعالى، وكانت الجاهلية لا يسودون أحدا إلا من تكلمت فيه هذه الأوصاف المتقدمة، فمنها السخاء فمن لا سخاء له لا ذكر له ولا ثناء، ولا حمد ولا دعاء، ولا تكاد تثبت مملكته.

قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله: كل ملك لا سخاء له فبشره بزوال ملكه، ولقد أصاب لَعَمْرُ الله في قياسه، فإذا لم يجز لا يميل إليه أحد ويتفرق عنه عسكره، ويطمع فيه عدوه، ومنها النجدة والرأي والقوة والكفاية، والحلم؛ لنلا يغضب في كل شيء فيندم، والصبر، فإله إذا كان عجولا يضيع الأمور، والتواضع؛ فإن

(١) الخَوَان: ما يؤكل عليه.

المتكبر مبغوض عند الناس، والشجاعة؛ فإن الجبان والخوار لا تدبير له، والعفاف؛ فإن المفسد المتهتك لا وقار له. أما حفظ الدين فهو الأصل والصراط المستقيم، والملك والبقاء والحياة والسلطنة والوزارة كل ذلك لأجل الدين، فيه النجاة وإليه المرجع والمآب. وحفظ البيضة وهو حدود الإسلام. والثالث: عمارة البلدان. والرابع: مقامات المظالم ينصف المظلوم ويمنع الظلوم. والخامس: تقرير الأموال لحسن الجباية. والسادس: إقامة الحدود. والسابع: اختبار العمال وهو تفويض الأمور إلى أربابها، فالخوار يعجز عن تمشية الأمور، والعاجز يعاقب على كل شيء^(١)، فإذا لم يكن صبوراً لا يدرك الأمور، والمتكبر ينفر عنه الناس، والعاجز يسقط وقاره.

واعلم أن الكلام ذكر وأنثى، وحيثما اجتمع الزوجان فلا بد من النكاح، ينبغي أن يكون الوزير سمحاً بالحقوق لا يطالب بها غيره، ويوفي ما يجب لغيره عليه، فإن مرض ولم يعد أو قدم من سفر فلم يزر أو شفع فلم يجب أو أحسن فلم يشكر أو خطب فلم يزوج، وما أشبه ذلك؛ فليتساهل في هذا ولا يغضب، فإنه لم يسود إلا ليغفر الزلة ويستر الخلة ويراعي الحلة إنما سميت هائناً لتنهى. قال أبو الأسود الدؤلي لبعض من يسارره من الوزراء وهو يمتنع من مساررته لبخره^(٢): لا يستحق السيادة إلا من صبر على مساردة الشيوخ البخر. وقال بزرجمهر: لا يصلح لقيادة الجيوش وسد الثغور وتدبير المملكة إلا رجل تكاملت فيه خلال أربع وثلاث وثلثان وواحدة؛ أما الأربع: فحزم يتصون به عند موارد الأمور ومصادرتها، وحلم يحجبه عن التهور في المشكلات إلا مع إمكان فرصتها، وشجاعة لا تقوم الأعداء بمكانها، وجود يهون جلال الأموال عند

(١) لأنه لا حيلة له ولا ذكاء ولا عقل ولا تدبير في الأمور فيصعب جام غضبه على المخطئ دون معالجة للأمور بفطنة وحزم.

(٢) البخر: النتن في الفم وغيره. "القاموس المحيط".

سؤالها؛ وأما الثالث: فسرعة مكافأة الإحسان، وثقل الوطأة على أهل الزيغ والعدوان، والاستعداد للحوادث؛ وأما الاثنان: فتخفيف الحجاب على الرعية، والحكم بين القوي والضعيف بالسوية؛ وأما الواحدة: فالتيقظ في الأمور مع ترك تأخير مهم اليوم إلى غد. وقال زياد: كمال السلطان في ثلاثة أشياء: شدة في غير إمساك، ولين في غير إهمال والسخاء، وأحق الناس بالملكة أنفعهم للرعية. وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - إن الأرض لتزين في أعين الناس إذا كان عليها أمير عادل وإن البلدة لتقبح في أعين الناس إذا كان عليها أمير جائر، والله أعلم بالصواب.

الباب الخامس في أوصاف الكمال

اعلم أن أوصاف الكمال في الوزير والرئيس والسultan ثلاثة: الحكمة، والشجاعة والعدالة، وأضدادها ثلاثة: السفه والجبن والشره والجور، فالعدل هو الفضائل كلها، والجور هو الرذائل كلها، فالعدل يكون في اكتساب المال والحريّة في إنفاقه، فإن الحر لا يكرم المال لذاته ولا يجمعه لمحبهته، بل ليصرفه في الوجوه التي يكتسب بها الثناء والمحمدة^(١)، ولهذا لا يكون الحر الكريم كثير المال لأنه منفاق ولا فقير ولا كسوب. وقد قال الإسكندر: إن سيرة السعداء ثلاثة أشياء: الأول: معرفة الحق، والثاني: فعل الخير، والثالث: عدم الآلام التي لا تنبغي؛ لأن الكامل يعرف كل شيء بحقيقته وخاصية وجوده، ويفعل الخير لوجوده بذاته ويتوخاه بجوهره لأنه خير فقط لا لغرض، ويختار العفة والراحة واستعمال الأخلاق الجميلة في طلب المعاش، ومعاشرة الناس تنفي الأخلاق التي لا تنبغي عن نفسه ليهنأ عيشه ويطيب قلبه أبداً، ويحب الجميل لأنه جميل فحسب، ويترك الحقد والحسد واللجاج، وترك الطمع فيما لا يمكنه الإقدام عليه^(٢)، ويلزم الصمت والعدل في القول والفعل جميعاً، وإنجاز المواعيد، وقلة المبالاة بالفقر، والصبر الجميل^(٣) والاشتغال بالمهم لقصر الزمان، والتواضع والقناعة وإكرام النفس أولاً ثم إكرام غيره، وترك التفوه بالقبيح وحسن اللقاء وطلاقة الوجه بكل حال، وترك التجني والقيام عن مجلس الخصومات^(٤)، وطلب المعاش بقدر ما لا يطغى، فهذه جملة أوصاف الكمال، والله تعالى أعلم.

(١) يعني: في الآخرة، فضلاً عن أنه سينال هذا قطعاً في الدنيا.

(٢) بمعنى قول بعضهم:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

(٣) في الأصل: (والموت الجميل)، وصوابه المثبت.

الباب السادس

في الموانع للوزارة

وهي سبعة: البخل، والجبن، والكبر، والضعف، والظلم، وكثرة الخطأ في الرأي، والطيش، فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فلا يصلح للسيادة والوزارة أصلاً، بل تكون سيادته اتفاقية من جهة السفه أو بالمال؛ لأن المقصود من الوزارة والرياسة تهذيب البلاد وترتيب أهاليها، وحملها على طاعة الله تعالى ورسوله، وإحياء السنة، وإماتة البدعة، وانتشار الصيت، وبقاء الذكر الجميل، فإذا كان ذا طيش وفسق فقد ضيع نفسه، فكيف يحفظ غيره؟! ومن خان نفسه فكيف ينصح غيره؟! وإذا كان جبلاً فكيف يهجم على الأمور؟! وإذا كان متكبراً فكيف يعاشر الناس؟! وكيف ينزلهم منازلهم؟! وإذا كان بخيلاً؛ فيقتل الناس بالظلم ويسومهم بالحييف، وإذا لم يكن عفيفاً؛ فيتبع عورات الناس ويطمع في المخدرات^(١) وأولاد الناس هذا ومثاله مما لا يخفى عليك، والله تعالى أعلم بالصواب.

الباب السابع

في بقاء الدولة

اعلم أن الأسباب الموجبة لبقاء الدولة أشياء منها: نصره الدين، وتقوية الشرع؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَصْرُوا أَنَّهُ يَصْرُكُمْ وَبُنِيَ أَقَامَكُمْ ۖ﴾ [محمد: ٧]، ومنها: نصره المظلوم، والعدل، والشفقة على المسلمين؛ لقوله تبارك وتعالى:

(١) المخدرات: جمع (مخدرة)، وهي البنت التي تلزم الخذر، وهو ستر يمد للجارية في ناحية البيت. "القاموس المحيط".

«إن كنتم تريدون رحمتي فارحموا عبادي»، وإطعام الطعام، واتخاذ الخِوَان^(١)، وتسهيل الحِجَاب^(٢)، فإن صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وقال نبي الله موسى صلوات الله على نبينا وعليه: يا رب إنك أمهلت فرعون أربعمئة سنة، وهو يقول: أنا ربكم الأعلى، ويكذب بآياتك، ويجحد رسلك، فأوحى الله إليه: إنه كان يعمر بلادي، ويؤمن عبادي، وفي رواية: كان حسن الخلق، سهل الحِجَاب فأحببت أن أكافئه.

السخاء شفيع منجح لبقاء الدولة، والبخل سبب مؤذن بزوالها، فبالسخاء تملك أزمة القلوب، ومنها أن يُحْدِثَ لكل ذنب توبة، ولكل سيئة حسنة، وهذا مقتبس من القرآن العظيم ﴿وَأَنۢ أَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكَ ثُمَّ تَوْبُوا۟ إِلَيْهِ يُمَتَّعْكُمْ مَّتَّعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَيَّءٍ﴾ [هود: ٣]. ومنها أن يتصدق كل يوم بما يقدر عليه فالصدقة شيء عجيب. ومنها أن يبطل القواعد المحدثه والرسوم المفتنة ويبسط العدل والإصاف. ومنها أن يرضي الله تبارك وتعالى بسخط المخلوق، ولا يرضي المخلوق بسخط الخالق جل وعلا، فإنها عمدة العقلاء ومنية الألباء، ويتعزز بالتقوى دون الأمانى وملازمة الهوى، فمن لم تعزه التقوى فلا عز له. ومنها أن يعمم بالإحسان فإن الإنسان عبد الإحسان، وإذا عم العدل وأفاض الفضل أحبته القلوب وأطاعته النفوس؛ فيأمن مكر الأعداء. ومنها أن يكون له صاحب خير ينهى إليه أخبار الممالك. ومنها أن يولي الأمور إلى أربابها وأهاليها، فقد سنل حكيم الساسانية عن سبب زوال دولتهم؟ فقال: لأننا فوضنا الأمور إلى غير أهلها، وغفلنا عن الرعية حتى أكل بعضهم بعضا، ولم يكن لنا صاحب خير ينهى إلينا؛ فاجترأ علينا العدو. ومنها أن يتبرك بدعاء الصالحين فكم من دولة أزلتها أدعية الناس، وكم من مملكة وطّنتها.

(١) أي: وضع موائد الطعام للناس والفقراء.

(٢) أي: من يدخلون له الناس للقاءه لقضاء حوائجهم.

وقرأت في «صوان الحكم»^(١) - وهو كتاب نفيس - إن اجتماع الدعوات بصفاء النيات، وخلوص الطويّات يحل ما عقدته الأفلاك، ومن لم يؤمن بهذا فليستأنف الإيمان. ومنها أن يستجد بالسلاح والكراع والرجال والأموال، فإن ذلك مما يرهب العدو ويقمع الحاسد. قال الله عز وجل: ﴿وَمِنْ رَبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ومنها أن لا يتخذ الضياع والقرى ولا يشتغل بالحرث والتجارة، فإن ذلك مما يطمع فيه العدو. ومنها أن يوظف على الناس ختم القرآن في داره كل يوم فإن لم يتفرغ فكل أسبوع، ففي الخبر: «ما خربت دار يقرأ فيها القرآن، وما عمّر بيت يكون فيه الزنا». ومنها أن يجالس الطماء ويصاحب الفقهاء فبته بركة وقوة في الدين والملك، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم، فإن الرحمة تنزل عليهم والملاكة تحف بهم فتصيبه الرحمة. فإن كان لله تبارك وتعالى في الناس أصفياء فهم هم، ومن جلس عند العطار فلا يحرم من نفحات المسك، ومحبة الطماء تسوق إلى الخاتمة السعيدة والثناء المخلد، والله تعالى أعلم.

الباب الثامن

في الأسباب المزيلات للدول

وهي التهور، والقحة، والانهماك في الشهوات، وقلة المبالاة بالعدو، وتعاطي الجور، والظلم آفة لا تخطئ، فالمملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم، ومصحف المجد يشهد بهذا، فإن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز: ﴿فَإِنَّكَ يُؤْتُهُمْ حَاوِيَةً يَمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢]، وأول ما كتب في التوراة هذه الكلمة: من يظلم يخرّب بيته، والبخل، والكذب، والإصرار على شرب الخمر

(١) صوان الحكم: كتاب في طبقات الحكماء للقاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد القرطبي، توفي سنة (٢٥٠هـ). كشف الظنون - لحاجي خليفة - ج ٢، ص ١٠٨٣.

والفساد، وإهمال أمر الرعية، قيل: السلطان يلعب والوزير يطرب والدنيا تخرب. قال أستاذ الإسكندر له: اعلم أن سلطتك على أجساد الرعية، ولا سلطان لك على القلوب، فمالك القلوب تَعْنُ لك الوجوه، واعلم أن علامات زوال ملككم إذا أطعتم هواكم، واستعملتم شراركم واستثقلتم خياركم، وزهدتم في العلم، ونقضتم العهد، وتهاونتم بأمور رعاياكم واستعملتم الكبر والزهو.

واعلم أن أساطين الملك وأعمدة السلطان أربعة أشياء، أولها: العدل في رعاياهم. والثاني: عمارة بلادهم. والثالث: ضبط ملكهم من أعدائهم. والرابع: منع قلوبهم عن ضعيفهم، وليس للملك أن يبخل لأن البخل لقاح الشنآن^(١)، ولا يغضب لأن الغضب لقاح الندامة، ولا يحسد لأن الحسد يقتل عدد الرجال^(٢).

الباب التاسع

في تدبير العدو

اعلم - وقاك الله تعالى شر الأعداء - أن العداوة للوزراء والرؤساء تنبعث من شينين: الأول: إكرام السفلة الأندال. الثاني: امتهان أهل الشرف والحسب، فالوزير إذا استعمل السفلة ورفع أقدارهم وسلطهم على رقاب الناس يأمرهم وينهون، فيجراً عليه أهل الشرف فيعتقدون الإساءة من الملك؛ لأن السفلة لا يعرف قدر نفسه ولا يحفظ الأدب، فيجرح القلوب ويؤلم الأجساد، ويدخر لنفسه ولمواليه الإحن والأحقاد، فإذا رأى ذلك أهل الشرف يعتقدون الإساءة والبغضاء، وإن كانوا أولياء فيصيرون أعداء، فتتحرك الأتف الأبية والدواعي الغضبية فينسلخون في عداوة الوزير من جلد البشرية والإنسانية، فيصبحون

(١) الشنآن: البغض.

(٢) يعني: لا يصير من كمل الرجال بل من همل الرجال الذين لا يساؤون النساء في أخلاقهن بل قد تكون الواحدة منهن خير من الجمع الغفير منهم.

بعداوة السبعية، فقضية الحرية تقتضي أن يكرم أهل الشرف ومراعاة ذوي البيوتات القديمة، والمحافظة على شؤونهم، ويزجر السفلة وينهاهم ويردع غوائلهم ليأمن مكايدهم.

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا^(١)

والسبب الثاني: التظاهر بالظلم والجور، فإن ذلك مثال العداوة، فالوزير الكافي والرئيس الكامل لا يضع الحديدة موضع الإبرة، ويصلح باللفظ ما لا يصلحه غيره بالعنف، فالحر عبد البر، والإنسان صنعة الإحسان. قال سيد القراء أبو عمرو بن العلاء: عجبت لمن يشتري الممالك بأمواله فيعتقهم كيف لا يشتري الأحرار بمعرفه فيسترقهم؟! فإن كان له عدو في البلد ينازعه في ولايته فليخرجه من البلد، فإن الصواب في ذلك.

فإن كان عدوا مكاتما خارج ولايته فقمعه من أربعة أوجه: الأحوط له أن يسترقه بالمعروف والإحسان واللفظ والكرم، فإن لم ينخدع بهذا فبالصفح والمهادنة، فإن لم ينخدع بهذا، فبالتحصن بالقلاع والخنادق والمواقع الحصينة، فإن لم يتمكن من ذلك فأسوأ التدبير المجاهرة بالحرب؛ وفي ذلك إغرار وأخطار؛ إذ الحرب سجال وللسلامة مجال، وهذا إذا أحس من قومه مقاومته، أما إذا علم ضعف قومه وشوكة عدوه، فإياه وإياه فلا يبدأ بالحرب إلا إذا رأى ضعفه فيعاجله قبل أن يستجيش الجموع، فإن كان له شوكة فيدع العدو حتى يطأ البلاد والديار فيكون غريبا في الموضع، والغريب أعمى لا يهتدي إلى عواقب الأمور والحيلة أنفع الوسيلة، وليحفظ الملك والوزير واحدة وأي واحدة، وهي: كتمان السر عن العدو، والجهد في معرفة سر العدو، ولا يحارب بنفسه، وأعظم الأشياء في الحرب التورية يرى شيئا ويفعل شيئا آخر، يقصد صوباً ويورّي طريقاً آخر،

ومن أحدث أثرا من عسكره فيكرمه، ومن نفق فرسه أعطاه عوضه، وهذا كله إنما يستقيم بنية الخير، ووعد الجميل، وإضمار فعل الخيرات، والاستعانة بعون الله سبحانه وتعالى.

الباب العاشر

في نصيحة الوزراء

اعلم أن الملك والوزارة يرادان للذكر الجميل والثناء الحسن، والدنيا أحوثة فكن حديثا حسنا لمن وعى، وكل ما هو فوق التراب تراب. قال المأمون: يطلب الملك للذكر الجميل، وإحداث الفعل الصالح، واصطناع أهل الخير، أما جمع المال والحرص على الذخائر فمن دأب السوقة. وقال أيضا في بعض وصاياه: إنما امتازت الملوك عن الرعية بقدر الخير والإحسان، فالرعية تريد أن تفعل الخير ولا تقدر والملوك إذا أرادوا أن يفعلوا فعلوا، فمن لم يفعل فقد أخبر عن لؤم نفسه فأيام الإمكان غنيمة، والقدرة على الخير فرصة، ولم يكن في الوجود أحسن من فعل الجميل، وأنشد عن الكبار:

اختم وطينك رطبًا للختم فكم قد خمر الطين أقوام وما ختموا
ولوا فما عدلوا أيام دولتهم حتى إذا عزلوا ذلوا فما رحموا^(١)

فليكن الوزير والملك عالي الهمة، فإن خساسة الهمة من دأب السوقة، ولا يتكل على القلاع والمال فإنه مسلوب منها عن قريب، فليطلب شيئا لا يسلب عنه لدى الموت وهو العمل الصالح، ويحفظ الدين حتى يفلح، وليكن جوادا مفضالا ليكون مشهورا، وليجعل دنياه فداء لآخرته، ولا يجعل آخرته فداء لدنياه، وليعتبر بالملوك السالفة والوزراء المتقدمة كأنهم لانداس الدهر ما خلقوا:

(١) البيتان من بحر البسيط، وفي الأصل (رطب) بدل (رطبًا)، والصحيح المثبت.

تفانوا جميعا فلا مخبر وماتوا جميعا ومات الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى فتمحي محاسن تلك الصور
فيا سائلي عن أناس مضوا أما لك فيما ترى معتبر^(١)

ولنذكر وصاية بهلول لهارون الرشيد: هب أن مملكة الدنيا تساق إليك أليس آخر ذلك كله موت؟ فأخر ما ترى القبر والحد والثرى، وإياك والظلم فإن الملك إذا اشتهر بالظلم بغضته الرعية، وإذا بغضته الرعية خالفته، والمخالفة سبب المحاربة، فالفتنة نجوى ثم شكوى ثم بلوى، والملك إذا اشتهر بالعدل آنسته القلوب، وأحبته الرعية، فإذا أحبته أطاعته وخدمته، والطاعة توجب الموانسة، والموانسة توجب بذل الروح في هواه، ويصير العدو مقموعا.

وإياك والبخل فإن شر خصال الملوك البخل، فالملك إذا كان بخيلا يطمع في أموال الرعية، ويدنس عرض نفسه بالأشياء الخسيسة، فيظهر خسة نفسه فتسقط حشمته، ويبطل وقاره في أعين الناس، فليجالس الأكابر والعلماء ليعظم وقعه في القلوب؛ لأنه علّم بين الرعية وتمتد إليه العيون، فإن صلح صلحت رعيته، وإن فسد فسدت رعيته واعلم أن كمال الملك أن يخافه أهل الجرائم، ويأمن منه أهل السلامة، وإياك أن تستحقّر العدو وإن فسدت رعيته، وإياك أن تستحقّر العدو وتستصغر الغائب وإن كان حقيرا في نفسه، فإن الأمور تبدو صغيرة ثم تكبر، والغيث ينزل قطرة قطرة، ثم تكون منه السيول، ولا تكونن أسير الشهوة، فإن ذلك من خاصة الخنازير والسباع، ولا يخالف قوله وعده فيصبح كذابا، والكذاب لا يصلح أن يكون ملكا واعلم أن الدنيا دول يوم لك ويوم عليك.

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ نُسَاء وَيَوْمٌ نُسَرَّ^(٢)

(١) الأبيات من بحر المتقارب.

(٢) البيت من بحر المتقارب.

فلا تقصد أهل البيوتات القديمة فإنه مذموم، وإياك والبغى فإن البغى مصرعه وخيم، ولا تفتخر بالمملكة فإن الملك لا بقاء له.

ويكرم شجعان عسكره ويضاعف في عطاياهم فإتهم جناح المملكة، وإذا ظفر بالعدو فليعف عنه فإن العفو من شيم الكرام، ويتعاهد أجناد عسكره فإتهم جوارحه وأركان مملكته، وقوة الوزير بالعسكر، ويواسي القروح قبل أن يحتاج إلى الكي، وإذا أظهر العداوة فليثبت عليها ثبات الليث على عداوته. ويعلم أنه إذا صلح خواص مملكته يصلح عوامها، وإذا فسد الخواص يفسد العوام. واعلم يا علم الوزراء وطرار الرؤساء - أدام الله لك المجد والبقاء ما بقيت الأرض والسماء - أن القاضي قابل على الذم والثناء، فإن عدل فيدوم الثناء للملك، وإن جار فلا يُعَدَم ذاماً.

فصل: ومن منة الله عز وجل على هذا الصدر الكبير سيد الوزراء أن جعل له قاضيا هو فرد العالم في صورة عالم، ملك في صورة إنسان يزين القضاء بمكانه ويشرف الدسنت بزماته^(١)، منزلته من الدين منزلة الصديق من الإسلام، فالحمد لله الذي قصر الفضائل عليه حتى أشير بالأصابع إليه، وينبغي للوزير الممكن والرئيس المطاع أن يتحنن ويترحم على البريء، ويغضب على الخائن من اللصوص والقطاع، فإن الترحم على هؤلاء من طبع النسوان، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَعْدُوا مَعَكُمْ رَأْفَةً فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢]، ولا تهتك أstar أهل الأقدار، فإن عثر صاحب كرم وشرف فليأخذ بيده ليكون قاضيا لحق آباءه، أيها الماجد ابن الماجد كفك شرفا أن يميل إليك أبناء الملوك، وأهل الشرف يطؤون بساطك ويقصدون حضرتك، والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(١) الدسنت، والدسنت: صدر البيت، معرب. "القاموس المحيط".

الباب الحادي عشر في مواعظ الحكماء

قال الإسكندر: أي ملك يتناول على عسكره ورعيته فلا يأمن من الهلاك في أيديهم، فإن من لا يتدارك الأمور الجزئية فإذا باضت وقرخت لا يمكنه تداركها، وأي ملك لا يحترم العلماء يكون في أصله خطأ، وأي ملك يلاحى ويماري عسكره لا يفلح أبدا، وأي ملك يتعود رسوم السوق من البيع والشراء والنقد والوزن فلا يفلح أبدا، وأي ملك يصّر على رأيه الخطأ فقد سعى في هلاك نفسه، وأي ملك رسم القواعد المحدثّة والرسوم الباطلة؛ فاعلم أنه يموت ولا تموت ذنوبه، وأي ملك لا يكون له كرم؛ فاعلم أنه لا يصلح للملك، وأي ملك انهماك في الخمر والزمر؛ فقد ظفر عليه العدو من حيث لا يشعر، وأي ملك اشتهر بالكرم والسخاء فأبشر بطول سلامته، واعلم أن الإنسان يحتاج إلى الأصدقاء لأن الاثنين إذا اجتمعا وتعاونوا كاتا أقوى على العظم والعمل.

ومن تمام السعادة افتناء الأصدقاء، ومن المحال أن يجتاز الإنسان جميع الخيرات مع الوحدة، فإنه يحتاج إلى من يضع معروفه عنده، ولولا الفقراء بقي الأغنياء ملطخين بالأوضار^(١)، فأيام الإنسان لذينة بالأصدقاء والأخيار الأفاضل والإنسان يحتاج إلى الصديق عند حسن الحال وعند سوء الحال، فعند حسن الحال يحتاج إليه للمؤانسة، وعند سوء الحال يحتاج إليه للمعاونة، وقيل للإسكندر: كن متيقظا فإن علل الصدور كثيرة، واعلم يا إسكندر أن مصيرك إلى التراب وأنت غدا مأكول التراب، فلا تتكبر على عباد الله تعالى، ولا تأخذ أحدا، فإن الشقي من لا يتذكر عاقبته، لا تكن حليما بالقول فقط بل بالقول والفعل جميعا، يا إسكندر اذكر اليوم الذي يهتف بك داعي الموت، واعدد زادا في كل أيامك، فإنك لا تدري متى الرحيل، يا إسكندر الرئاسة تراد للذكر فإن طلبها من جهتها سافته إلى طلبه،

(١) الأوضار: وسخ الدسم واللبن، أو غسالة السقاء والقصة ونحوهما. "القاموس المحيط".

الصدق أصل الممدوحات والكذب أصل المذمومات، يا إسكندر البخل ينتج حب الدنيا، ويسوق إلى الندامة والطمع والخيانة، يا إسكندر لا تمل إلى الغضب فإنه من أخلاق السباع، يا إسكندر كم عساك تعيش، فتيقظ، يا إسكندر من مات محمودا كان أحسن حالا ممن عاش مذموما، يا إسكندر أنت موضع مدحي إن عدلت وإن جرت قصر لساتي في ذكر مدحك، يا إسكندر اطلب الغنى الذي لا يفنى، والحياة التي لا تتغير، والملك الذي لا يزول، والبقاء الذي لا يضمحل، يا إسكندر لا فخر فيما يزول ولا غنى فيما لا يثبت، ولا تكلب على الدنيا فإتك قليل البقاء فيها، يا إسكندر من أسرف في الشراب فهو من السفلة، يا إسكندر عند الغضب تعرف الرجال، يا إسكندر اعلم أن الدولة إذا أقبلت إلى الملك فتخدم شهوته عقله، وإذا أدبرت الدولة فيخدم عقل الملك شهوته، يا إسكندر من علامة الدولة اقتناء المناقب واصطناع الأحرار، وإذا أدبرت فاصطناع السفلة، يا إسكندر من لم يصلح نفسه كيف يصلح غيره، يا إسكندر السُّكر على الملك حرام لأنه حارس المملكة فقبيح أن يحتاج الحارس إلى حارس، يا إسكندر إن الظالم يبقى ما حفظ العمارة وحدود الشريعة، فإذا تجاوز عنهما فقد حان هلاكه، يا إسكندر الأخيار يتقربون إلى الملك بالمناصحة والدعاء إلى الخير، والأشرار يتقربون إليه بمساوئ الناس والطعن في أعراضهم، وإن الساعي بمنزلة الحريق المشعل، يا إسكندر اعلم أن عيب عمالك وأمرائك منسوب إليك ولك، كل ملك يستأصل أشراف رعيته ويبقى السفل بمنزلة رجل يقطع الأشجار المثمرة ويغرس عروق العوسج، يا إسكندر اعلم أن الأيام تهتك الأستار، وتغير اللباس، وتحوج الناس إلى النار، وتخلق الجديد، وتدرس الجميل وتأتي على كل شيء إلا على الذكر الجميل والمحبة القديمة، ونشاء فائح ودعاء صالح، وعدل شائع، فإنه يبقى مدى الأيام، تزود من الذكر الجميل فإنه سيبقى، وما فوق التراب تراب.

الباب الثاني عشر

فيما يختص بعقوبته

اعلم يا عَلمَ الوزراء وطراز الرؤساء، وصاحب العزة القعساء، والدولة
الشماء - أدام الله أيامك ما رفعت يد بالداء - أن خطر الوزارة عظيم وخمارها
صعب شديد، فإن السلطان مسئول عما يفعله هو بنفسه وعما يفعله نوابه،
والوزير غدا مسئول عن عدل نفسه، وعدل نوابه، وعدل ما ملكت يمينه إن خيرا
فخير وإن شرا فشر، وبالجملته هو مأخوذ بفعل الغير. قال الله عز وجل:
﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُبْغِلُونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]
وقد قال جهابذة العلماء في تفسير قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾
[الأنعام: ١٦٤]، يعني: لا تزر وازرة طوعا واختيارا، ولكن تحمل عليه قهرا
واقْتِسَارًا، فإذا ظلم نوابه فهو مأخوذ بظلمهم، لأنه ولاهم على رقاب العباد، وعلم
أنهم يظلمون الناس بغير الحق فلم يمنعهم، فكأنه رضي بظلمهم، والرضا بالظلم
ظلم، والرضا بالفسق فسق، والرضا بالكفر كفر، فمن تغافل وسكت بعد العلم بذلك
فقد هلك من حيث لا يشعر، وإن كان له حسنات وكان له خصوم تؤخذ منه، ومن
لم يكن له حسنة فيطرح عليه أثقال الخصوم وذنوب القوم، فيا معشر الوزراء
الاعتبار الاعتبار. ويا أعلام الرياسة الاعتذار الاعتذار، وعن سر هذا ألقى عمر
برأته، وقال: لا أريد الخلافة، من يأخذها بما فيها؟ وعن هذا قال رسول الله ﷺ:
«ما من وال إلا ويود يوم القيامة أن لو أعطى قوتا من الدنيا».

فمتى ظلم النواب والعمل في الولاية، وعلم به الوزير فلم يمنعهم، فهو
معاقب يوم القيامة ومسئول عنه، فيا عجباً لمن يدعي الفهم وهو أعمى يحرق
نفسه لأجل الغير، ويسود صحيفته لأجل غيره، ويبيع آخرته بدنياه، إن كان في
هذا عقل فما في عالم الله تعالى جهل، فإذا قطع الطريق في حدود ولايته فهو

مسئول عنه، فإن قال: كنت عاجزا، فيقال: هلا سلمتها إلى قوي قادر الآن، وقد عصيت قبل، وإن رتع النائب فيما لا يحل فهو مسئول، وإن ضاع الفقراء في ولايته فهو معاقب بذلك؛ إذ يجب عليه أن يوصل إليهم حقوقهم، وإن خرب مسجد أو انشرم رباط فيجب عليه أن يعمره، وإن ظلم عبده وخدمه أو تركوا الصلاة فيجب عليه أن يأمرهم بالصلاة وترك الظلم، فإنهم محبوسون تحت يده، وإن تغافل وأبى فقد باء بغضب من الله تعالى، ولا يحزنك دم هراقه أهله، وإن تعطل في ولايته حد من حدود الله تبارك وتعالى أو زيد فهو المطالب به غدا، ويتحاشى الوزير من شيء هو قاصمة الظهر، وهو: مصادرة الناس وإراقة دمائهم باسم المصلحة للمملكة، فإن الولاة يقهرون ويضيعون حكم المواريث، ويرفعون آية من كتاب الله تعالى، وهي قوله عز وجل: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، ويسمونها مال المصالح، وهو مال المفسد.

وإياك من شيء أحدثه الظلمة الأجلاف فإنه مؤذن بزوال الدين والدنيا، وهو: تغيير موجبات الشرع، ووضع مراسيم وأحكام من عند أنفسهم، مثاله: الشرع أمر بقطع يد السارق والاقتصاص من القاتل، وحد شارب الخمر والقاذف والزاني وقاطع الطريق، وزجر النائحة، وهجران المنجم، فهؤلاء غيروا أوضاع الشرع وعقدوا على كبائر الذنوب ضماتا وقبالة، فإن أوتوا بسارق يأخذون منه قليلا ويخلونه وشأنه، ثم هو يستوثق بهم فيتخذها حرفة وصناعة، وإن رأوا شارب خمر لا يحدونه وإن بالغوا في الحد كان ذلك دافعا^(١) وإن قبضوا على قاتل يأخذون منه دناتير ثم يعفون عنه مع سخط الأولياء، ويطالبون الجيران بالجنانية والمصادرة، وعقدوا على المأجور وبيت القمار في كل بلدة سجلا وقبالة ويشاركون الجباة في بعض جرائمهم، ولقد رأيت سارقا قبض عليه فحملوه إلى

(١) دافعا: أي: سدس درهم.

السجن فحبس ساعة ثم خلى سبيله، ثم قيل: إن السارق شريك الوالي فيما يتعاطاه يقسم معه كلما يسرق، فقلت: يا للمسلمين! هذا إن كان الحق، فأين الباطل؟! وإن كان هو إسلاما فأين الكفر؟! يا هذا أقصر، فما بقي من الإسلام إلا اسمه، ثم أقول: إن يكن اعتقد استحلال ذلك فقد لزمه الكفر، ومن لم يعتقد فهو به فاسق لا يجب التسليم عليه، ويعلم أن كل مرسوم مُحدث في بلده هو مأخوذ به، ويلحقه الإثم والحرَج في الحياة وبعد الممات لأنه يمكنه تغييره إذ هو تحت ولايته، ولم يكن مبتدعا في ولايته حتى تستفيض بدعته - فنعوذ بالله من هذه الصفات - بل هذا كفر صريح يبوء بإثمه، بل المفترض عليه أن يزيل البدعة ويهين أهلها، فإذا سكت عنها فالسكوت أخو الرضا، فكم أحصى من هدى! ولا يمكن إحصاؤه، والله تعالى أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

الباب الثالث عشر

في وظائف الوزارة

الوظيفة الأولى: أن يبتدئ الوزير يومه بالدعاء وقراءة القرآن العظيم، وفي الخبر: «من قرأ كل يوم مائة آية عُصِمَ ذلك اليوم». الثانية: أن يتصدق بشيء وإن كان يسيرا ليكون دافعا لقضاء السوء. الثالثة: نية الخير والعزم على الصلاح فيقول: لعل هذا اليوم آخر أيامي ولا أعيش بعده، فلختم أعمالتي بالخير، وكل ما يحب لنفسه يحب لرعيته، وكل ما يكره لنفسه يكره لرعيته. الرابعة: أن ينتظر مجيء أرباب الحاجات فلا يستخف بهم، فإن قضاء حاجة المسلم خير من سبعين حجة مبرورة، وسبعمائة ركعة نافلة. الخامسة: أن يأخذ في كل أمر بالرفق دون العنف فإنه قادر على العنف، فيأخذ بالرفق ليبين فضله، ويلحقه دعاء النبي ﷺ حيث قال: «اللهم أيما والٍ رفق بأمتي فارفق به، ومن شدد على أمتي فشدد

عليه». السادسة: أن يجتهد حتى يرضى عنه جميع رعيته ليكون خير الوزراء. قال رسول الله ﷺ: «خير أئمتكم من تحبونه، وشر أئمتكم من تبغضونه». السابعة: لا يؤثر رضا المخلوق على رضا الخالق، فإن من سخط من قول الحق فهو شيطان. الثامنة: يحكم بالعدل ويأمر به. قال رسول الله ﷺ: «من حكم بين اثنين فظلم فلعة الله على الظالمين». التاسعة: أن يحضر العطاء ويجالسهم لينصحوه ويأمره بالمعروف، ويعرف أحكام الله تبارك وتعالى، ولا يخطئ في دين الله عز وجل. العاشرة: أن يأخذ على أيدي الظالمين، ولا يمكن أحدا من الظلم فإنه مسئول عن ظلمهم، وفي التوراة: إذا علم السلطان بظلم عماله فرضي به فكأنما فطه، والله تعالى أعلم.

الباب الرابع عشر

في مصانعة العمال

قال رسول الله ﷺ: «من ولي لنا شيئا فلم يكن له امرأة فليتزوج، ومن لم يكن له مسكن فليتخذ مسكنا، ومن لم يكن له مركب فليتخذ مركبا، ومن لم يكن له خادم فليتخذ خادما، فمن اتخذ سوى ذلك كتب خائنا، وجاء يوم القيامة غالا سارقا».

حكى: أن امرأة من قريش أرادت أن تخاصم غريما لها إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؓ فأهدت إلى عمر ؓ فخذ خروف، فتوجه القضاء عليها، فقالت: يا أمير المؤمنين افصل القضاء بيننا كما يفصل فخذ الخروف، فقضى عليها، ثم قال: إياكم والهدايا، وذكر القصة، ورد الهدية.

واستعمل الحجاج المغيرة بن عبد الله على الكوفة، فأهدى إليه رجل سراجا من شبه فبلغ خصمه فبعث ببغلة، فلما اجتمع عنده الخصمان جعل يحمل على صاحب السراج، وهو يقول: أمري أضوأ من السراج، قال له: ويلك إن البغلة

رمحت السراج فكسرتة.

ولما أتى عمر رضي الله عنه بتاج كسرى جعل يقلبه بعود في يده ويقول: واللّه إن الذي أهدى هذا لأمين، فقال رجل: يا أمير المؤمنين أنت أمين الله يؤدون إليك ما أدبت إلى الله، فإذا رتعت رتعوا، قال: صدقت.

ولما أتى علي - كرم الله وجهه - بالمال أقعد بين يديه النقاد والوزان وكوّم كومة من ذهب وفضة، وقال: يا حمراء، ويا بيضاء احمرّي وابيضّي وغري غيري. وكان عمر رضي الله عنه إذا بعث عاملا اشترط عليه أربعا: لا يركب البراذين، ولا يلبس الرقيق، ولا يأكل النقي، ولا يتخذ بوابا.

ولما قدم أبو هريرة رضي الله عنه من البحرين قال عمر رضي الله عنه: يا عدو الله وعدو كتابه أسرفت مال الله تعالى، قال: لست بعدو الله ولا عدو كتابه، ولكن عدو من عاداهما لم أسرق من مال الله تعالى، قال: فمن أين جمعت لك عشرة آلاف؟ قال: خيلي تناسلت، وسهامي تتابعت، فقبضها منه. وقال أبو هريرة: فلما صليت الصبح استغفرت لأمرير المؤمنين، ثم قال لي: ألا تعمل؟ قلت: لا، قال: قد عمل من هو خير منك يوسف، فقلت: نبي ابن نبي، قلت: أخشى خمسا: أن أقول بغير علم، وأحكم بغير حق، وأن يضرب ظهري، ويشتم عرضي، وينزع مالي، فقال: كفى بالمرء خيانة أن يكون أمينا للخونة.

وقال معاوية لعامل: كل قليلا تعمل طويلا، والزم العفاف يلزمك العمل، وإياك والرشا يشتد ظهرك عند الخصام. وقيل لأعرابي: أكلت مال الله عز وجل، قال: فمال من أكل؟

ولما قدم معاذ من اليمن، قال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ارفع حسابك، فقال: حسابان! حساب من الله تبارك وتعالى، وحساب منكم، والله لا وليت لكم عملا أبدا، والله أعلم بالصواب.